عبد الله الطوخى (٢)

«أقول لك سرا.. رغم إيمانى العميق بالماركسية، واصرارى العميق على الدفاع عن الفقراء وإقامة العدل. لكننى كنت أشعر فى أعماقى أننى لست رجل هذا المكان، ولا هذا المكان مكانى. فى أخطر الاجتماعات الحزبية وحيث يشتعل النقاش وتعلو أصوات تتقاطع بعضها كنت أنا أسرح بخيالى بعيدا جدا. اتساءل كيف أصف هذا الوجه الصارخ أو هذا الشارب الفخم أو هذا الرفيقة العابسة فى واحدة من قصصى المقبلة»
«عبد الله الطوخى فى حواره معى»

* * *

وباختصار طغى على الجنون وقررت أن امتلك
النهر كل النهر وحدى»
عبد الله الطوخى فى حوار آخر

عبد الله فى سجن مصر. وفتحية فى الخارج، تقوم مقامه تلتقى الرفاق، تنقل الرسائل، لكنه يريدها. لا يطيق عنها بعادا خاصة إذا كانت قد أصبحت همزة الوصل بين رفاق الخارج ورفاق السجن. تولى عبد الله كمسجون مسئولية زيارات الشيوعيين، يوميا يقف فى الصباح ينادى على اسماء من لهم زيارة، ويوزعهم مجموعات وطبعا تأتى فتحية كل يوم. كل يوم تأتيه حاملة اخبارا ورسائل ومحبة. سنوات السجن تمضى وينطلق عبد الله إلى البيت حيث فتحية ودفء الطفل ويكتب عبد الله فى كتابه «دراما الحب والثورة» «بخروجى من السجن بدأت مرحلة جديدة من حياتى، وعرفت معنى الشعور بأن يولد المرء فى حياته مرة ثانية. لقد ظللت لفترة طويلة أحس بالدهشة من أننى حر طليق، وأن بإمكانى أن انهض، وأفتح باب شقتى وأخرج إلى الشارع، بل إن تجربة السجن لم تعد تجربتى وحدى بل تجربة فتحية أيضا. وأحسست أننا نحن الاثنين

اقتربنا اكثر من بعضنا البعض وأصبحنا شريكين كاملين فى التجربة بنورها ونارها»، وكان أول قرار لعبد الله بعد الافراج عنه أن يترك المحاماة ويتفرغ للكتابة ويكتب عن هذا القرار «فاض قلبى كراهية هذه المهنة. أنا الهث كل يوم وراء عالم برجوازى قح لا تزدهر فيه أحوال المحامى إلا بازدهار المشاكل بين البشر، بينما أنا فى الأصل أحلم بيوتوبيا الاشتراكية التى اساسها المحبة والتعاطف بين البشر» ويمضى عبد الله قائلا : تركت مهنة المحاماة غير نادم ولا أسف وبدأت ارسم مستقبلى الجديد على أن أكون كاتبا وبالذات أديبا. أدبا مشحونا ومبشرا بالقيم الثورية والإنسانية» (عبد الله الطوخى- دراما الحب والثورة).

ولا حيلة لى فى محاولة اقتباس كلمات من كتاباته فهى آلاف من الصفحات الجميلة العبارة المتقنة الوصف وهو ينجح تماما فى أن يسكب على الورق كل رومانسيته. وتمضى بك الصفحات. ليحكى لك حكايات عشقه.

«عشقت الحزب والفكرة والمعتقد، لكن الخلافات والانقسامات والصراعات اشعرتنى بالمرض. المرض الحقيقى، وذات صباح تمشيت حتى حديقة الازبكية، جلست أمام البحيرة الجميلة وأعداد من البط تسبح فيها باسترخاء وراحة بال. وفيما اشرب القهوة كتبت دون قرار مسبق رسالة للرفاق ابلغهم فيها باستقالتى من الحزب. اذكر أننى قلت فيها: ها آنا اكتب رثاء لنفسى، لكننى لن أموت. سأظل دوما أحبكم وأعشق الحزب واعشق الفكرة لكننى لا احتمل هذه الصراعات. قد أكون مخطئا لكننى وبصدق لا احتمل، فاحتملوا عدم احتمالى وسأحافظ دوما على الصداقة والاخلاص والمودة». ثم كتبت رسالة أخرى إلى رفاقى فى الواحات قلت فيها أنتم ابطال ليس لأنكم تحتملون السجن والتعذيب وفراق الأحبة ولكن لأنكم تمتلكون القدرة على احتمال هذه الصراعات الحزبية التى اخشى أن تكون مدمرة».

ثم يقول فى كتابة أخرى «عشقت روزاليوسف حيث عملت فيها كاتبا فى البدء عشت فيها حلما جميلا مع رفاق أحببتهم. لكن القيود الناصرية والرقابة على كل ما يخطه القلم جعل من روزا قيدا يخنقنى خاصة بعد أن خلت روزا من الرفاق الذين احتوتهم السجون، وعشت فى روزا غريبا كرجل يعيش مع زوجة لا يحبها لكنه لا يستطيع الافتراق عنها، وعشت اطمح لشىء غير مرئى لكننى احس به واسعى نحوه.

عشقت فتحية: كانت زيتا لمصباحى. انطلقنا معا فى متعة النضال الحزبى. وفى حدائق الفن والكتابة. ثم اختلفنا فى السياسة. وبعد حل الحزب اتخذت هى منحى آخر عبر ادوات تنظيمية أخرى. اختلفنا حول الموقف من عبد الناصر والموقف من السادات والموقف من كامب ديفيد فرقتنا السياسة لكن الحب والعشرة والفن والكتابة كان اقوى من أى اختلاف».

وعندما كانت النكسة «شعرت أن روحى غادرتنى رغم انفى. كنت أنام على السرير متمنيا أن يهبط بى إلى لا رجعة.. لكننى تحديت يأسى ورفضت دعوة صافيناز كاظم إلى مقاطعة الكتابة ورفضت تهكم فؤاد نجم ياما أحلى رجعة ضباطنا من خط النار وقررت أن اكتب. وأن اكتب كثيرا جدا داعيا إلى النهوض واستعادة الكرامة».

ثم تفجر الخلاف بينه وبين رفاقه القدامى وبينه وبين فتحية حول الموقف من كامب ديفيد. كنا جميعا نناضل ضد كامب ديفيد لكنه أيد من منطق رومانسى صرف السعى نحو السلام بين البشر. كتب رواية عن جنديين مصرى وإسرائيلى وأدار بينهما حوارا يقطر انسانية ورومانسية تترفع عن المواقف السياسية وتتمسك بمحبة البشر وفيما يوشكان على الاتفاق تأتى قذيفة اسرائيلية فتقتل الاثنين معا. وتسرى فى صفوف اليسار همسات موجعة، عبد الله يؤيد كامب ديفيد ويزورنى عبد الله ليعلن ألمه من هجوم رفاق حتى لم يقرأوا الرواية ويقول : يقولون أنه لا مشاعر إنسانية فى هذا الصراع فاليهود يقتلوننا ولا يقتلون يهوديا مهما اختلف معهم..و قال «طيب أهم قتلوا رابين عندما قبل مبدأ السلام؟ وابتسم تلك الابستامة الساخرة التى منحته محبتى منذ اليوم الأول وقال: شايف المصادفة الجندى الإسرائيلى فى روايتى كان ايضا اسمه رابين»، لكن عبد الله يتمسك دوما بالموقف والمبدأ فعندما حاصر الإسرائيليون بيروت وتدافع الكثيرون للهرب منها ذهب هو إلى هناك. قابله رفيق مصرى متسائلا «انت جاى هنا تموت، فأجاب بذات الابتسامة: أنا قررت اعيش. وفى مخبأ تحت الأرض اجرى حوارا مع عرفات وتحت القصف قال عرفات وكأنه يقرأ الغيب : اعطنى شبرا من الأرض الفلسطينية اقيم عليها دولة منها احرر الأرض والناس جميعا. وتحت القصف الإسرائيلى لبيروت تقابل مع فتحية وتصالحا.

وتمضى الحكايات بلا نهاية ... لكننى اتمسك باثنتين منها. ذات يوم وقف أمام النهر تم غمره جنون عشقه للنهر وقرر امتلاكه وقام برحلته الشهيرة ركب المركب ومضى يفحص

النهر شبرا شبرا، اقصد يمتلكه شبرا شبرا من القاهرة حتى آسوان وسجل رحلته الجنونية فى كتاب أكثر من رائع.

وفيما بعد يناير ١٩٧٧ حيث نصب نظام السادات خيمة سوداء على أرض الوطن ارهاب بلا حدود، أغلب الرفاق فى السجن، القوانين سيئة السمعة تتوالى.. كنت فى السجن وجاء عيد ميلاد عبدالله الستين وفوجئت بمقال طويل فى روزا بعنوان «جمعية هدم الهرم الأكبر»، يقول وكأنه يستشعر صعوبة الإحساس بالأمل.. «فى الستين يريد الانسان أن يفعل شيئا يتوج به حياته، فما لم ينهض ليسجل موقفا واضحا مع الوطن والشعب. فليس أمامه إذا أراد أن يفعل شيئا يتصالح به الناس سوى هدم الهرم الأكبر».

أنه عبد الله، الفلاح الماكر يستنهض الناس قوموا. ناضلوا. ارفعوا هذه الخيمة السوداء، استيعدوا للوطن حريته وكرامته. وإلا فإهدموا ما تبقى لنا ولمصر. وفهم الناس. الرفاق والاصدقاء .. وايضا فهم نظام السادات وبدأت حملة اضطهاد جديدة.

احتملها عبد الله كما اعتاد مبتسما.